جَمَالِيَّاتُ الدُّعاءِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ

أ. م. د. عاطي عبيات
جامعة أمير المؤمنين
الاهواز -جمهورية ايران الاسلامية

فحوى البحث

حفل القرآن الكريم بايات تضمنت معاني الدعاء للخالق –عز وجل –من قبل عباده الصالحين. وقد حاول السيد الباحث في هذه الدراسة، ان يبين جانباً من جمال نظم القرآن وروعة ابداعه حين يعبر عن معاني الدعاء اذ سبر الباحث اغوار اسلوب الدعاء فوجد ان سياقاته متعددة وادواته متباينة، و مجالاته متنوعة. وقد اعتمد الباحث خطة المنهج الوصفي –التحليلي في دراسة الجوانب الجمالية التي تتحلى بها ايات الدعاء ومنها:

– حسن الابتداء والختام.
– حسن التنسيق المحفوف بالاطار الموسيقي الرائع.
– اسلوب الايجاز.

كما اجابت الدراسة عن جملة من الاسئلة التي تعرض في ذهن القارئ.. وانتهت بخاتمة واستنتاجات.

الملخص:

في هذه الدراسة حاولنا ان نبيّن جانباً من جمال نظم القرآن و روعة إبداعه، فبالرغم من زادنا المتواضع و بضاعة علمنا القليلة سبرنا أغوار اسلوب الدعاء فى آيات القرآن الكريم، فوجدناه في آيات كثيرة، تعددت سياقاته، و تباينت أدواته، و تنوعت مجالاته و أنماطه. ففي هذه الدراسة التي اعتمدت في خطتها المنهج الوصفي-التحليلي درسنا جوانب جمالية تتحلي بها آيات الدعاء منها حسن الابتداء والختام وحسن التنسيق المحفوف بالاطار الموسيقي الرائع ومنها اسلوب النداء والايجاز محاولين تبيين مدي القدرة علي توظيف هذه المباني لتجلية المعاني ومدي تعانق صور الكلام مع المعاني والمضامين و الاغراض. و تجيب هذه الدراسة عن الأسئلة التالية: ما هي آداب الدعاء و أركانه و شروطه في القرآن الكريم؟. كيف يريد منا القرآن الكريم أن ندعو الله تعالى؟. ما مدى تأثير الجوانب البلاغية و الجمالية للدعاء على نفسية المؤمن و ترسيخ المعنى؟.

الكلمات الدليله: القرآن الكريم، الدعاء، البلاغة، الايقاع، التناسق، الايجاز.

المقدمة:

الدعاء في اللغة «طلب الطالب للفعل من غيره»[1] وقال الراغب الاصفهاني: «و يستعمل استعمال التسمية نحو: دعوت ابني زيداً أي سميته، ودعوته اذا سالته واذا استغثته»[2] أمّا فى الاصطلاح فقد عُرّف بأنّه «الابتهال الى الله تعالى بالسؤال و الرغبة عنده من الخير، و التضرّع اليه فى تحقيق المطلوب و إدراك المأمول»، أو هو «استدعاء العبد ربّه العناية، و استمداده إيّاه المعونة»[3].

وقد وردت مادة «د ع و» مع مشتقاتها في القرآن الكريم اكثر من ٨٠ مرة تدل على معان متعددة، منها:

١. العبادة، نحو ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ [سورة الاعراف: ٥٥] الطلب و

(١) ابن سيده، ١٣١٦.
(٢) الاصفهاني، ١٤١٨: ١٧٦.
(٣) ناصيف، ١٤١٥: ٧.

السؤال، نحو: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [سورة البقرة: ٦١].

٢. والاستغاثة والاستعانة، نحو: ﴿ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[سورة البقرة: ٢٣].

٣. النداء، نحو: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [سورة الاسراء: ٥٢].

٤. الحثّ على الشيء والحضّ عليه، نحو: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة يونس: ٢٥] وقوله ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [سورة يوسف: ٣٣].

الدعاء علاقة روحية و مثالية بين المخلوق و الخالق، فهو مخ العبادة والصلة الموصولة بين العبد و ربه، و من هذه الناحية صار ركناً اساسياً فى عبادتنا العلمية و النظرية معاً و من الطبيعى ان الدعاء ليس كلمات تلفظ فحسب و انما النيّة وحدها نوع من الدعاء ايضاً و لكنه اذا ظهر فى ثوب الالفاظ اكتسب رونقه و مظهره الخارجى الذي يتجاوز خصوصية المكان و الزمان[٤] فالدعاء ترنيمة المؤمن و طعامه الروحى و غذاؤه الوجدانى و هو الفريضة الممزوجة بكل ألوان الطاعات و العبادات فالصلاة من بعد التوحيد مفروضة و بدايتها قراءة ام الكتاب (الفاتحة) بآياتها السبع قوامها الدعاء، تبتديء بالدعاء و تنتهى بالدعاء[٥]. و الدعاء قد يسّره الله لنا و دليل التيسير ما جاء فى القرآن من تعريف للدعاء و أركانه و شروط و امكان طلبه و الأسماء و الألفاظ التى ندعو بها. مضامين الدعاء القرآنى غنية بآداب الحديث معالله، كيف نحمده و نثنى عليه، و نستغفره بالانابة الى جنابه، ثم كيف نبدؤه بطلب افضل الحاجات، من دون ان ننسى الشؤون الثانوية، و كيف نتذكر الوالدين و الاقربين و الأخوة المؤمنين عند الدعاء و عشرات من الآداب الأخرى[٦].

(٤) كريمى فرد، ٢٠٠٥: ٧٤.
(٥) على رضا، ١٤٠٤: ١٧٣.
(٦) المدرسى، ١٤٠٥: ٤.

إنّ الدعاء الجامع الشامل انّما هو القرآن. والقرآن هو الصورة المثلى للدعاء، فمن رجاحة العقل أن نتوسل الى الله بكلمات الله و قرآنه و كتابه. فالآيات الكريمة بالرغم من انّها متناثرة فى مناسبات مختلفة فىالقرآن الاّ انها تعطينا في المجموع فكرة متكاملة عن الدعاء.

المصنفون المسلمون الأوائل درسوا خصائص العلوم و سموها بأسمائها و صنفوها و ميزوها علماً، و أدبا، بحكمة و دقة كما رأيناهم في دراساتهم القرآنية، و النحوية، و البلاغية، والأدبية، إلاّ أنهم مع تحريهم أهملوا فنّا أدبياً رائعاً هو الدعاء الذي تميّز فى الخطاب و المحتوى، واكتملت فيه البنية، و تبعهم فى ذلك الأمر المحدثون من علماء اللغة فلم يلتفتوا إليه وصفاً و دراسةً، و لعل سبب ذلك البعد الديني التعبدي للدعاء.

خلفية البحث:

غالب الدراسات التي أُجرِيَت في هذا الصدد كانت دينية لاتتعدى إلى البحث في عوالم اللغة و أسرارها إلا على استيحاء، كما رأينا ذلك في رسالة كتبها عبد الرحمن جيلان بن خضر العروسي وسماها «الدعاء و منزلته من العقيدة الإسلامية» و تقدّم بها إلى شعبة العقيدة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، و هي بحث في العقيدة، و كتاب الدكتور محمود الشريف «الدعاء في القرآن الكريم» و هو كتاب خواطر اكثر من أي شيء آخر.

علماء الشريعة هم أكثر من اهتمّ بالدعاء و كتبوا عن أحكامه و آدابه في كتب جمة و تآليف مفردة ككتاب «الدعاء» لأبي عبدالرحمن الضبي، و «الدعاء» لأبي القاسم الطبراني، و «شأن الدعاء» لأبي سليمان الخطابي، و «الدعوات» للبيهقي، و «أروع ماقيل في الأدعية» لإميل ناصيف، و «الدعاء معراج الروح و منهاج الحياة» لمحمد تقي المدرسي و «الدعاء و الاجابة» لفؤاد علي رضا و «الدعاء المستجاب» لعبدالكريم الخطيب. و هذه كلّها كتب اهتّمت بالدعاء من منظور علم الرواية

و الدراية، و علم العقيدة، و لم يكن للبحث اللغوي و البلاغي نصيب من مدادها الذي كُتِبت به.

هذا ما دفعنا الى دراسة الدعاء علّنا بذلك أن نساهم في استكشاف جماليات الدعاء في آي القرآن الكريم.

صيغ الدعاء:

صيغ الدعاء في القرآن الكريم ثلاثةً:

١. دعاء الفرد لنفسه.

٢. دعاء الفرد لغيره.

٣. دعاء الجميع للجميع.

و فيما يلي نستعرض هذه الطوائف الثلاثة من الدعاء، لنتعرف على أساليب القرآن في الدعاء للمؤمنين.

١. دعاء الفرد لنفسه:

و هو اسلوب معروف من الدعاء، و نجد في القرآن نماذج من هذا الدعاء على لسان الانبياء و الصالحين، أو من تعليم الله تعالى لعباده و من ذلك قوله تعالى:

- ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [سورة الانبياء: ٨٩].
- ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾[سورة المؤمنون: ٢٩].
- ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [سورة المؤمنون: ٩٧].

٢. دعاء الفرد لغيره:

و هو نحو آخر من الدعاء له نماذج و شواهد في القرآن و من ذلك قوله:

- ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [سورة الأسراء: ٢٤].
- و منه دعاء حملة العرش للمؤمنين: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [سورة غافر: ٧-٩].

٣. دعاء الجميع للجميع:

أشهر أساليب الدعاء في القرآن من هذا القبيل و من ذلك قوله تعالى:

- ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[سورة الفاتحة: ٦ -٧].

- ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيمُ ﴾[سورة البقرة: ١٢٧].
- ﴿ رَبَّنَآ أَفرِغ عَلَينَا صَبرًا وَتَوَفَّنَا مُسلِمِينَ ﴾[سورة الأعراف: ١٢٦].
- ﴿ رَبَّنَا ٱصرِف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [سورة الفرقان: ٦٥].

حسن الابتداء و حسن الختام:

اذا التفت الى فاتحة الكتاب و خاتمته بدا لك من أسرار التنزيل عجيبٌ، فإن الله سبحانه افتتح كتابه الكريم بالدعاء في «سورة الفاتحة»، واختتم -سبحانه- كتابه العظيم بالدعاء في «سورتي المعوذتين». سورة الفاتحة بآياتها دفقة من دعاء محض و ابتهال خالص الى الله سبحانه، تبدأ بدعاء و تنتهي بدعاء. و كما كانت خاتمة الكتاب دعاء و استعاذة بالله من شرّ النفس و الدنس و من شرّ الوسواس الخناس، كانت الفاتحة دعاء بدىء بحمد الله رب العالمين الرحمن الرحيم، مالك الملك و الملكوت، المتفرّد بالعبودية، المستعان، الهادي، المنعم، ثم كانت بعد ذلك سؤالاً و تضرعاً من المؤمنين لله حتى يمنحهم الهداية و الرشد و السداد و التوفيق.

الفاتحة دعاء بدىء بعد البسملة بحمد الله و حمدالله دعاء فيه طمأنينة نفسية تُعفى على ما ترسب في الأعماق من اهتزاز عواطف أو جموح أحاسيس، و تدفع الى الصفاء الداخلي و الراحة الوجدانية و الهدوء القلبي[٧] و المنهج الدعائي تخططه لنا سورة الفاتحة، فهو يبدأ بذكر و يصدر بتوسل، توسل الى الله بأسمائه و صفاته ثم يأتي عقيب ذلك السؤال و الطلب «اهدنا الصراط المستقيم». و هذا هو اوّل طلب و دعاء في القرآن الكريم علّمنا الله تعالى اياه لأن حاجتنا اليه أشدّ من حاجتنا الى كل شيء سواه[٨]. ولا يخفي علي البليغ جمال الالتفات في هذه السورة فقد جري الأسلوب في مطلع السورة على طريقة الغيبة «الحمد لله رب العالمين الرحمن

(٧) ابن الشريف، ١٩٨٧: ١٢.
(٨) المصدر السابق: ٤٠.

الرحيم مالك يوم الدين» فكان مقتضي الظاهر أن يقال «اياه نعبد واياه نستعين» لكنّ اقتضي مقام الدعاء العدول أو الالتفات من الغيبة الى الخطاب فقال: «اياك نعبد واياك نستعين»، وفي هذا الالتفات ما فيه من تعظيم شأن المعبود جلّ وعلا. فالكلام من أوّل السورة الى هنا ثناء والثناء في الغيبة أولي. ويقول ابن القيم: «ان الدعاء الذي يتقدّمه الذكر و الثناء أفضل و أقرب الي الاجابة من الدعاء المجرد...»[٩].

مفاهيم و قواعد، كليات و اصول، تواريخ و أحداث، صور و مشاهد كل ذلك تضمنته فاتحة الكتاب، فكانت دفقة من دعاء و شحنة من ابتهال يكمن فيها قوى عدة يتزود بها الداعي و يتسلح بها الذاكر يشحن بها طاقته و يشحذ بها ايمانه و يدجج بها معرفته و يقينه.

فحسن الابتداء أمرٌ مهم مؤثر جداً في كل حديث نثراً كان و شعراً ذلك لأنّه مطلع الحديث و أول مايصل الى أذن السامع و اذا لم يكن مرغوباً و لطيفاً و واضحاً و قريباً للقلب و مناسباً للمقام و مقتضى الحال فهو يبعث السامع أو القاري على النفور و الاشمئزاز و يصرفه عن سماع أو قراءةً باقي الحديث.

هذا فضلاً عن «حسن الختام» الذي نشاهده في آخر سورة من القرآن الكريم-سورة الناس -التي جاءت بشكل ملائم جذاب و بليغ في التأنقّ و النظام أعلى مستوى يمكن ان يصل اليه حديث و لاسيما اذا لاحظنا أن الجزء الأخير من الكلام يبقى في أذن السامع اكثر مما يبقى رنين الاجزاء الأخرى.

بدأت هذه السورة بفعل أمر «قل» حتى تلزم الانسان بترنيم هذه الآيات التي تقيه من شرّ الوسواس الخناس و لأجل تعلّق هذه السورة بالأذهان و تأخذ موقعها من القلب جاءت الفاصلة مكرّة -الناس -الاّ في الآية الرابعة التي جاءت فاصلتها «الخناس». و هذا يجعل السورة اكثر ايقاعاً و أشدّ وقعاً على القلوب كما أن تكرار حرف السين

(٩) عطيف، ١٤٢٤: ٧١٨.

يساعد على ايقاع الآيات بصورة ملفتة للنظر.

هذا بالنسبة للكتاب -القرآن الكريم -بما فيه من سور و آيات، لكنّنا اذا أمعنا النظر في آيات القرآن الكريم التي تتضمن الدعاء سنجد «حسن الابتداء» و «حسن الختام» في كل آية بصورة جليّة تقتضيها آداب الدعاء، فمثلاً هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[سورة الأعراف: ٨٩]. فالعبارة الأخيرة «و انت خيرالفاتحين» تنسجم تماماً مع ما جاء في بداية الآية، كما نرى في هذه الآية ضرباً من ضروب البديع يقال له «رد العجز على الصدر». و اذا دقّقنا في الآيتين التاليتين: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة الحشر: ١٠] و ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[سورة الممتحنه: ٥]. تتبيّن لنا العلاقة الوطيدة بين الخاتمة ﴿ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ و ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ و بين البداية في الآيتين، حيث الآية الأولى تتكلّم عن الرحمة و الغفران و الآية الثانية تتكلّم عن الفتنة التي لامردّ لها الاّ قدرة الله المصحوبة بحكمته.

حسن التنسيق:

لقد وردت عدّة آيات متتابعة في القرآن تنصُّ على الدعاء ففي جميع هذه الآيات جاءت الكلمات و العبارة يتلو بعضها بعضاً، في انتظام و نسق متين جميل و بانسجام سليم و حسن دون أن يردّ فيها اصطلاح ناشز معيب لاينسجم مع المقصود و المضمون. فقد ورد في سورة طه على لسان موسى: ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴾ [سورة طه: ٢٥-٣٠]. كما يتبيّن لنا فالجمل متناسبة في تركيبها و تتابعها و عطف بعضها على بعض فكانت العبارة السابقة مختصرة و مجالاً للعبارة اللاحقة، و العبارة اللاحقة توضيح و كمال للعبارة السابقة.

و كيف بنا لو تصوّرنا جماعة من

الصّديقيين الصالحين يشتركون ذكوراً و اناثاً، شيباً و شباناً، بأصوات رخيّة متناسقة، تصعد معاً، و تهبط معاً و هي تتوسل الى الله منشدة هذا النشيد الفخم الجليل: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[سورة آل عمران: ١٩١-١٩٤].

فالربط و العلاقة بين العبارات محكم و منسجم إحكاماً لفظياً و معنوياً عميقاً بحيث نلاحظ بوضوح أنّ كلّ عبارة تستوجب عبارتها التالية بصورة عفوية و طبيعية.

فالدعاء في هذه الآيات كالماء الجاري الذي يسيل في مجرى لين مسترسل بألفاظ بديعية جميلة مفعمة بالمعاني، و تراكيب صحيحية فصيحة.

و نجد حسن التنسيق متجسداً في الآيات التالية: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [سورة آل‌عمران: ٨ -٩].

انّهم يدعون الله و يتضرّعون اليه ألاّ يزيغ قلوبهم المنافقين كأولئك الذين تقدّم ذكرهم في الآية السابقة: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [سورة آل عمران: ٧] فكما نرى تعبير «ربنا لاتزغ قلوبنا» هو تعبير في غاية الايجاز اذ لا داعي لذكر التفاصيل المشار اليها في الآية السابقة، فلا داعي ان يقول مثلاً: ربنا لاتجعلنا كالذين فى قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله. و تعبير «وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب» فيه تطلع الى كرم الله السابغ أن يهب لهم هذه الرحمة و أن تكون واسعة شاملة تتناسب مع كرم المنعم الوهاب. ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾ انهم

يعلنون إيمانهم الراسخ بهذا اليوم الذي يجمع فيه الناس، و كأنما يقدمون هذه الإقرار مؤهلاً لطلب رحمة الله بهم في اليوم، و الانعام عليهم بنعيم الجنة التي وعدهم بها «ان الله لايخلف الميعاد»[١٠].

كما نلاحظ في هذه الآيات جاءت العبارات على نسق واحد و كل عبارة تسعى لاكمال معنى العبارات الأخرى و أخراجها بأحسن صورة بحيث ارتسمت من التئام هذه العبارات صورة منسقة لاتستغني عن أية عبارة من هذه العبارات.

الايقاع الصوتي و التناسق الفني:

إن هذا القرآن العظيم يمتاز بأسلوب ايقاعي جميل، غني بالموسيقى، مملوء نغماً و سحراً، ففي كلّ سورة منه و آية، و في كل مقطع منه و فقرة، و في كلّ مَشدَ منه و قصة، و في كل مطلع منه و ختام نجد هذه الخصيصة البارزة الواضحة.

و لعلنا لانتجاوز الحقية إن رَدَدنا سحرَ القرآن الى نسقه الذي يجمع بين مزايا النثر و الشعر جميعاً[١١] فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة و التفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، و أخذ في الوقت نفسه من الشعر الموسيقى الداخلة، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تُغني عن التفاعيل، و التقفية التي تُغني عن القوافي، و ضم ذلك الى الخصائص التي ذكرناها فَسَبَق النثر و النّظم جميعاً.

انّ هذا الايقاع الصوتي، لينعبث في القرآن المجيد حتى من اللفظة المفردة، في كل آية من آياته، فتكاد تستقلّ بجرسها و موسيقاها. على هذا الأساس يحقّ لنا الآن أن ننتخب من سور قرآنية متنوعة بعض مواقف الدعاء. و نحن نعرف أن الدعاء بطبيعته نَمَط من النشيد الصاعد الى السماء، و لايحلو وقعه في نفس المتضرّع المبتهل إلاّ أن تكون الفاظه منتقاة و ايقاعه منتظم. القرآن الكريم لم ينطق على لسان النبيّن و الصّديقين و الصالحين إلاّ بأحلى الدعاء نَغَماً و

(١٠) محمد قطب، ١٤٠٣: ٣١٣.

(١١) العمرى، ١٩٨٢: ٨٣.

أروعه ايقاعاً، و سحر بيان فإذا عرفنا أن ابتهال الصالحين كما جاء في الكتاب المبين، اكثرهُ رغباً أو رهباً، طمعاً أو خوفاً، استعجالاً لخير أو دفعاً لشرّ، أدركنا سرّاً من أسرار الإيقاع و التغيم ينبعث من كل مقطع من مقاطع الذكر الحكيم.

فلنتصور معاً -و نحن نُرتّل معاً دعاء زكرياء -شيخاً جليلاً مَهيبا على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة، و شعاع من نور... و لنتمثل معاً -هذا الشيخ الجليل على و قاره -متأجج العاطفه، متهدّج الصوت، طويل النّفس، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب في أعماق قلوبنا شديدة التأثير: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[سورة مريم: ٤ -٦].

إنّ البيان لايرقى هنا إلى وصف العذوبة التي ينتهى إليها «الايقاع» في فاصلة كل آية بـ «يائها المشدّدة» و تنوينها المحول عند الوقف «ألفاً ليّنة» كأنها ألّفَ الاطلاق في الشعر، فهذه الألف اللينة الرخوة المنسابة تناسقت بها «شقيّاً -وليّاً -رضيّاً» مع عبد الله-زكريا -ينادي ربّه نداءً خفيّاً[١٢] فلنستمع الى هدير نوح﵇ بعد أن دأب ليلاً و نهاراً على دعوة قومه الى الحق، و هم يلجّون في عنادهم و كفرهم، و يفرّون من الهدى فراراً، و لايزدادون إلاّ ضلالاً و استكباراً، فما كان من نوح- وقد يئس من صلاحهم -الاّ أن يتملكه الغيظُ، و يمتلى فُوهُ بكلمات الدعاء الهادرة الغضبى، تنطلق في الوجود مجلجلة مدوية، بهديرها الرهيب، وايقاعها العنيف و ما أظننا نتخيّل الجبال إلامدكوكة و السماء إلاّ متجهِّمة عابسة، و الأرض إلا مهتزة مُزلزلة، و البحار إلاّ هائجة ثائرة حين وقف نوح داعياً على قومه بالهلاك التبار: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا

(١٢) العمرى، ١٩٨٢: ٨٨.

كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [سورة نوح: ٢٦ -٢٨].

ان الايقاع الصوتي و التناسق الفني في القرآن آية عظمى من آيات الرحمن، فليس الايقاع فيه كقافية من الشعر يُقَاس بالتفعيلات و الأوزان، و يضبط بالحركات و السكنات، و لا النظم فيه يعتمد على الحشو و التطويل، أو الزيادة و التكرير، أو الحذف و النقصان، و لا الألفاظ تُحشد حشداً، و تلصق إلصاقاً، و يلتمس فيها الإبهام و الإغراب، بل الايقاع طليقٌ من كل قيد، و النّظم بنجوة من كل صنعة. و الألفاظ بمعزلٍ عن كل تعقيد و هذا هو سر الإعجاز[١٣].

اسلوب النداء:

من أهمّ الأساليب التي تُستَخدمُ في آيات الدعاء هو اسلوب النداء[١٤]. و النداء هو طلب المتكلّم إقبال المخاطب و إن شئتَ فقل: هو طلب إقبال المدعوّ بحرف نائب مناب «أدعو» سواء كان ذلك الحرف ملفوظاً، نحو: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة ص: ٢٦] أو مقدراً، نحو: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٠].

اذا كان النداء و الطلب من الأدانى الى الأعلى، و من الصغير الى الكبير، و من الضّعيف الى القوّى، و من المخلوق الى الخالق، يقال له «دعاء»، فلو قال امرؤ: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [سورة آل‌عمران: ١٩٣]، فإنّه لايأمر ربّه أن يغفرله، و يكفّر عنه سيّئاته، و يتوفاه مع الأبرار، و ليس من المعقول أن يكون هذا طلباً على وجه الاستعلاء و الإلزام، و لكنّه طلب فيه ضراعة و خوف، و فيه تذلّل و استعطاف، و فيه انقلب معنى الأمر الى معنى الدعاء[١٥].

للنداء ادوات مختلفة أشهرها، حرف «يا» الذي يستعمل لكلّ منادٍ قريباً كان

(١٣) المصدر السابق: ٨٩.
(١٤) شّراد، ١٣٨٥: ١١٨.
(١٥) ديباجى، ١٣٧٦: ١٤٢.

أو بعيداً أو متوسطاً، و احياناً يصاغ النداء بغير أداة، على الأخص اذا كان المنادى هو الله -سبحانه و تعالى -يقول الدكتور محمد بدري عبدالجليل في هذا المجال، اذا أرادَ الله أن ينادي الانسان أو الاشياء، يستخدم ادوات النداء، مثلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [سورة البقرة: ٢١] و ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾[سورة هود: ٤٤]. لكنّنا اذا أردنا ان ننادي الله فلايجدر بنا ان نستخدمَ حرفَ النداء، إذ لانجد في القرآن آية واحدة استعمل البشر فيها أداة النداء بصراحة في خطاب الله، بل جاءت الأداة في مثل هذه الحالة بصورة مقدّرة[١٦]؛ مثلاً ابراهيم عليه السلام يخاطب ربّه بهذه الصورة التالية: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[سورة البقرة: ١٢٦].

من المَلاحِظ البلاغية العامة في آيات الدعاء ايثار لفظ الجلالة في دعاء العبادة و الثناء، وايثار لفظ «الرب» في دعاء الطلب و المسالة؛ لأن العبادة متعلقة بالألوهية، و اجابة الدعاء من مقتضي الربوبية. فقد استهلّ موسى عليه السلام دعاءه بنداء الرب «قال رب اشرح لي صدري» بحذف حرف النداء الدال علي شعوره بقربه من ربه؛ وحذف ياء المتكلم المضاف اليه من«ربه» للتخفيف، واختيار لفظ «الرب» هنا لأن اجابة الدعاء من مقتضي الربوبية[١٧].

الايجاز:

و لما كانت «لغة الدعاء» تبتعد أصلاً عن الاطناب فإننا نرى أن آيات الدعاء جاءت موجزة و قصيرة و يتلو بعضها بعضاً أو يعلو و يتجاوز بعضها البعض الآخر. فهذه الآيات قد ابتعدت عن الاسهاب و الإطالة حتى تبلغ بالحاجات الى عتبة الله فى أقصر مدّة من الوقت إلاّ عندما يكون المقصود منها التأكيد أو غير ذلك من المقاصد المعنوية الأخرى كالشعور و اللّذة من الجلوس مجلس المتحدث مع المعبود الأسمى و الربّ الأحد الذي لاكفء و لانظير له. فمثلاً في هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ

(١٦) عبد الجليل، ١٩٧٥: ٢٣.

(١٧) عطيف، ١٤٢٤: ٧٣٥.

﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ نشاهد تكرار «ربنا»، و الايتان بضمير «انت» المنفصل تاكيداً لضمير الكاف المتصل. و كل هذا تعمداً في اطالة الكلام للتلذّذ بالحديث مع الحق تعالى واستدراراً لشفقة ورحمة وعطف المعبود. أمّا من ضروب الايجاز في آيات الدعاء هو عدم التصريح بالحاجة و التعبير عنها بلغة غير مباشرة، فمثلاً النبي موسي يدعو ربّه اذ يقول: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [سورة القصص: ٢٤] فلم يطلب الخير من الله باسلوب صريح، بل انّه يقول: الهي انزلت عليّ خيراً كثيراً و اشكرك علي ذلك، لكنني الآن اصبحت فقيراً الى ذلك الخير، فهو يطلب الخير من الله بلغة غير مباشرة. ويقول ربنا عن ايوب: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [سورة الانبياء: ٨٣] و من هذه الآية نستوحي اسلوب الدعاء، فطريقة ايوب في الدعاء تستدعي ان يكون الانسان مؤدباً في دعائه لله، اذ نري ان ايوب لم يطلب من الله شيئاً بصراحة، وانّما نادي ربّه انّي مسّني الضرّ، فكيف تترك عبدك هكذا ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، فيطلب ايوب رحمة ربّه بكناية هي ابلغ من التصريح.

والمتذوق لبلاغة النصّ القرآني يروقه الايجاز بالحذف في قوله ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أي يقولون ذلك بمعني يتفكرون قائلين. وفي هذا الحذف ايحاء بأن تفكير أولي الالباب «قد أسلمهم مباشرة الي التصديق بأن هذا الخلق لم يكن باطلاً، وانّما حكمة اقحام هذا الفعل المحذوف يقلّل من الايحاء بهذه السرعة في ادراك الحقيقة والاعتراف بها»[١٨].

النتيجة:

تضمّنت آيات الدعاء في القرآن الكريم معاني سامية و مطالب عالية تجمع بين خيري الدنيا و الآخرة. هذه الآيات الكريمة بالرغم من انّها متناثرة في مناسبات مختلفة في القرآن الّا انّها تعطينا في المجموع فكرة متكاملة عن

(١٨) حجاب، د. ت، ٦٠.

الدعاء فمضامين الدعاء القرآني غنية بآداب الحديث مع الله و ان الدعاء الجامع الشامل انّما هو القرآن فيبتدأ بدعاء -سورة الحمد -وينتهي بدعاء- سورة الناس.

لقد جاءت آيات الدعاء في اسلوب بلاغي معجز، يتّسم بالوضوح والقوّة و الجمال؛ وهي تمثّل السّمات العامة لأسلوب القرآن الكريم. فمن أبرز المظاهر البلاغية التي تحقق تلك السّمات في اسلوب الدعاء هي الدقّة في اختيار الالفاظ وحسن الابتداء والانتهاء والايقاع الصوتي والتناسق الفني واساليب الخروج عن الاصل كالتقديم والتأخير، والايجاز و الحذف و الالتفات.

مصادر البحث:

القرآن الكريم.

١. ابن سيده، ابو الحسن علي بن اسماعيل: المخصّص، المجلد ٣ القاهرة، المطبعة الاميرية.

٢. ابن شريف، محمود (١٣١٦ هـ): الدعاء في القرآن، ط ٥، بيروت، دار مكتبة الهلال -١٩٨٧م.

٣. الأصفهاني، الراغب المفردات في غريب القرآن، ط ١، بيروت، دار المعرفة (١٤١٨م).

٤. ديباجى، سيد ابراهيم، بداية البلاغة، تهران، انتشارات سمت (١٣٧٦هـ).

٥. شرّاد، شلتاغ عبود، تأثير قرآن بر شعر عربي معاصر، ترجمه مهدي خرمى، ج١، سبزوار، اميد مهر (١٣٨٥م).

٦. عبد الجليل، محمد بدوي المجاز واثره في الدرس اللغوي، ط١، الاسكندرية، دارالجامعة المصرية (١٩٧٥م).

٧. عطيف، يحيي بن محمد «من بلاغة بعض الادعية في القرآن الكريم»، السعودية، مجلة جامعة ام القري للعلوم الشريعة واللغة العربية و آدابها، عدد٢٦ (١٥) (١٤٢٤هـ).

٨. علي رضا، فؤاد: من علوم القرآن، ط، بيروت، دار إقرأ (١٤٠٤هـ).

٩. العمري، احمد جمال: دراسات

في القرآن و السنة، ط ١، القاهر، دارالمعارف (١٩٨٢م).
١٠. كريمى فرد، غلام رضا: «الجمالية في الصحفية السجادية»، تهران، مجلة العلوم الانسانية، العدد ١٢ (٤) (٢٠٠٥م).
١١. قطب، محمد: دراسات قرآنية، ط ٤، بيروت، دارالمشرق (١٤٠٣هـ).
١٢. المدرسي، محمد تقي: الدعاء معراج الروح و منهاج الحياي، ط ١، المركز الثقافي الاسلامي(١٤٠٥هـ).
١٣. ناصيف، إميل: أروع ما قيل من الأدعية، ط ١، بيروت، دار الجيل (١٤١٥هـ).